لاتصلح القرية
إلا بصلاح المدرسة الإلزامية

للأستاذ محمد أبو بكر ابراهيم
المفتش بالمدارس الثانوية

لا تصلح القرية المصرية إلا إذا صلحت المدرسة الإلزامية ، لأنها النواة لكل أمل اجتماعى ، أو علمى ، أو أدبى ، أو خلق ، أو دينى فى البيئة القروية المصرية : فإصلاحها إصلاح لجميع القرويين ، وفسادها فساد لهم .

وهى فوق ذلك محل لرجائهم ، ومرجع لهم ولأبنائهم الأميين العوام : تلتحم آثارها المختلفة بعقولهم وعقائدهم ، وميولهم وعواطفهم ، وتجرى منها مجرى الأصول . بها يتاح لهم من التعليم قدر تستنير به أفئدتهم ، وتستضىء به أرواحهم ، ويطلعون منه على حقوقهم المالية والسياسية ، وواجباتهم الدينية والوطنية ، ويعتزمون طلبها ، والجد فى تحصيلها وإحراز الفائت منها .

فيها يتعلم أبناء الطبقة الخاشعة العاملة : من صناع ، وزراع ، وفلاحين ، وعمال ومحترفين . وهى المورد الفريد لهم ، لأنها تسد حاجتهم ، وتكفى لتوجيههم توجيها أو يا يتمشى مع الغرض العام الذى أنشئت خاصة لأجله .

وتقوم المدارس الإلزامية للفقراء فى القرى — وهم جمهرة كثيرة — مقام المدارس الابتدائية للأغنياء فى المدن وهم طائفة قليلة ، فما أجدرها العناية فى جميع القرى ، وتبلغ عدتها نحو ثلاثة آلاف ونصف ألف مدرسة ، ويتعلم فيها جيش من التلاميذ البائسين قد يبلغون المليون عدا . وهى — فى الواقع — قد حققت بعضا من الأغراض التهذيبية ، ومحت جانبا من ظلال الأمية ، وأزالت شيئا من غشاوات الجهالة والضلالة .

ومن شاء التثبت مما وصلت اليه هذه المكاتب الإلزامية من النجاح ، فليرجع بذاكرته إلى ما قبل سنة ١٩٢٥ أى قبل إنشائها ويوزن بين حالة الأمية فى ذلك العهد ، وحالتها فى هذا العهد ، تتبين له الحقيقة بوضوح ، فبالموازنة تظهر ثمرتها ماثلة للعيان

وليس فى الديار المصرية من المدارس ما يصح أن يسمى شرقيا مصريا إلا المدارس الأولية والإلزامية ، فهى فى صبغتها ، وقالبها وطابعها تجرى — ويجب أن تجرى — على التقاليد الموروثة المرعية فى البلاد الشرقية عامة ، وفى البلاد المصرية خاصة . وهى بهذا الوضع تتفق مع عقلية المصريين ، وتتصل بحياتهم اتصالا متينا . وكان طبيعيا أن تكون مناهجها مصفاة من كل شائبة أجنبية ، أو مسحة غربية ، لتظل مسايرة للنظام الشرقى ، متابعة

للعرف العربى ، مؤتلفة مع العادات القومية ، فلا تخرج عن طبيعتها التى قدرت لها ، ولا عن حدودها التى شرعت من أجلها ، ولا عن أغراضها التى وجدت لتحقيقها .

إن المقصد الأول من التعليم الإلزامى إيجاد قوة من عامة الشعب تكون نافعة للأمة . ولا تتيسر هذه القوة إلا بنشر التعليم الإلزامى بين الطبقات الفقيرة ، لتخرج أفرادا عاديين عاملين ، تتكون من مجموعتهم كتلة متماسكة منظمة تحب بلادها ، و بيئتها ، وتحترم نظمها وقوانينها ، وتذعن للأوامر والنواهى من أولى الأمر والنهى .

ولم يقصد من هذا التعليم إخراج شبان متفوقين فى كل شىء ، ولا متخصصين فى أى شىء ، فان التفوق والتخصص فى المرحلة الأولية من الأمور العسيرة المنال فى الفترة القصيرة التى يمضيها الطفل فى الإلزام . إنما يجىء التفوق والتخصص بعد نزول هؤلاء الصغار إلى ميادين الحياة متى أحبوها ونشطوا لها . وذلك بعد اجتيازهم مرحلة الإلزام واندماجهم فى معترك الدنيا ، وفى آفاق العيش .

ولا يراد من الصغار فى المدة الوجيزة التى يقضونها فى التعليم الإلزامى سوى أن يتقنوا القراءة والكتابة ، وأن يفهموا ما يقرأون وما يكتبون وما يحسبون . وما عدا هذا ، وما بعد هذا إنما يجىء تبعا غير مقصود ، بإيحاء المدرس ونصائحه ، وتوجيهاته فى أثناء دروس القراءة والكتابة والحساب والدين .

وإن كل محاولة ترمى إلى إدخال عناصر أخرى إضافية على المنهج بدعوى التجديد هى محاولة لا تنتج سوى الخيبة والحسرة ، وضياع الأمل والمجهود .

وقد دفعت الغيرة بعض المربين المصريين أن يدخلوا على التعليم الإلزامى تعديلا كبيرا ليساوق منهج التعليم الابتدائى فى كثير من نواحيه ، بغاء منهجه مهلهلا فضفاضا : متدليا إلى حضيض التهجى فى ناحية ، ومحلقا فى الجو فى دراسة المواد العالية فى ناحية أخرى ، وصار مضطربا مفصوم العرا . وهذا هو الذى دفع بالمدرسة الإلزامية إلى أن تقف بين المدارس موقفا غريبا شاذا .

أكرهت على قصورها وقلة استعدادها ، وضعف حالها — أن تكون كالمدرسة الابتدائية ، فأجهدت إجهادا فوق طاقتها ، وكلفت شططا أن تقوم برسالتها الأصلية ، و برسالة المدارس الابتدائية فدب فيها دبيب الضعف ، وأخذت تذبل ذبولا كادت تخيب له الآمال .

نهض رجال الإصلاح أخيرا إلى إقالة عثرتها ، و إنعاشها من كبوتها ، والحمية تدفعهم والأمل فى إنقاذها يزجى عزائمهم ، وطرقوا لذلك أبوابا عدة ، وسلكوا طرائق شتى بين محو و إثبات فى نظمها ، وتغيير وتبديل فى مناهجها . ولكن الإصلاح لم يصل بعد إلى الصميم ، ولم ينفذ إلى مكان الداء ، فلم يكن إلا جهدا ضائعا وأملا خائبا .

إن العلة كل العلة جاءت من مزج المنهج الشرقى المصرى الملائم للقرية المصرية بالمنهج الغربى الأوربى غير الملائم لها، فتألفت من هذا المزيج أمشاج من المعارف لا توافق بينها ولا انسجام فيها ، ولا يجمل تطبيقها فى الريف . فلا هى بالشرقية ولا هى بالغربية ، مع اكتظاظها بالمواد البعيدة عما يجب أن يعرفه الطفل المصرى باعتباره شرقيا : مسلما كان أو مسيحيا .

خفيت هذه العلة على بعض الناس فتخوفوا عاقبة المدرسة الإلزامية وتوهموا أن ضررها أكبر من نفعها ، وأنها لا يمكن أن تأتى بالثمرة الحلوة التى تتعادل مع نفقاتها الباهظة ومجهوداتها الكثيرة . فأحاطوها بالشكوك ، ورموها بأتهم ، وبخسوها حقها ، والصقوا بها من النقائص ما كاد يزعزع مكانتها ، ويظهرها بمظهر لا يليق بها .

وهؤلاء لو أخلصوا فى نقدهم ، ودرسوا رسالتها دراسة حقة ، لخففوا من وطأتهم ، وقالوا من حملتهم وعالجوا كلومها فى هدوء وتستر ، من غير تشهير بها وتكبير لسوءاتها . ولكنهم ويالالأسف — جعلوا جرحها ثغارا ، ودمها سائلا مسفوكا ، ثم تركوها تنعى من بناها . وبدهى أن الهدم أيسر ما يقترحه المقترحون ، وأسهل ما يأمر به الآمرون .

والحق أن المصلح الحاذق كالطبيب الماهر يتعقب مظاهر الضعف حتى يصل إلى مستقرها ومستودعها . ثم لا يقف عند هـذا الحد بل يتجاوزه إلى وصف العلاج الشافى والدواء الناجع ؟

محمد أبو بكر ابراهيم

المفتش بوزارة المعارف

قم للمعلم وفّه التبجيلا ... كاد المعلم أن يكون رسولا

أرأيت أشرف أو أجل من الذى ... يبنى وينشئ أنفسا وعقولا ؟

شوقى